المدارس والهيئة الاجتماعيَّة

للاب خليل اده اليسوعي

قيل ان احداث اليوم رجال الغد ونعم القول لان الرجال لا تخلق رجالًا انما تصير رجالًا بالتعليم والتهذيب. ولذلك يمكن القول ايضًا: ان طالب اليوم وطنيّ الغد. وكما تكون المدرسة كذلك تكون الهيئة الاجتماعيَّة لان المرء يستعد لخدمة الوطن في المدرسة. فاذا فسدت المدرسة والتربية فسدت الهيئة الاجتماعيَّة واذا حسنت كان الامل وطيدًا في حسن احوال المملكة ونجاحها. ولذلك يسرنا ان نرى الادباء مقبلين على المباحث التعليميَّة والتهذيبية. لكنَّا نخشى ان تسوقهم الآراء السائرة في بعض المؤلفات او على ألسنة بعض الخطباء الى حيث لا يريدون. فان بعض الكتبة او المتكلمين لمَّا رأوا كثرة المذاهب في بلادنا وما بينها من التنافر والتزاحم وكانوا يرغبون في توحيد الكلمة خيرًا للبلاد وصيانة للوطن ظنوا ان السبيل الى ذلك انما في التعليم او التهذيب اللاديني اعني الذي ليس للدين فيه تداخل وربَّما انقادوا الى هذا القول بمطالعة تآليف اوربيَّة لم يتوصلوا الى تمييز غثها من سمينها. فلو ساد هذا القول لكان ضربة قاضية على البلاد ولأصبح الدواء شرًّا من الداء. ولآل مسعى هؤلاء القوم الى هلاك ما يريدون احياءه وهدم ما يريدون بناءه اعني به الوطن. لان الوطن بلا دين لا يقوم والوطنيَّة لا تنبت في ارض لم يُحيها الدين او إن نبتت لم تأتِ بالثمار اليانعة التي يشتهيها كل محب لخير بلاده. وعليه اذا اردنا ان ينشأ احداثنا على حب الوطن الصادق فلا بدَّ من تهذيب عقولهم وقلوبهم على مبادئ الدين الصحيحة. لانها وحدها تضمن لنا صدق الوطنيَّة وثباتها وقوتها ولا عجب لان الدين وحده يعلم الانسان واجباته كلها تعليمًا كاملًا فعَّالًا ثابتًا لا يضعف نوره ولا يحتجب ولا ينطفئ مهما ادلهمَّت الظلمات وعصفت العواصف. وهو وحده ايضًا يقوي العزائم ويمكنها من انجاز ما يقتضيه خير الوطن ولو اشتدت عليها الاحوال ولو استوجبت بذل الاموال وتضحية الارواح

هذا ما اردنا ايضاحه لمواطنينا لئلَّا ينخدعوا بظواهر الحقيقة فينقادوا الى الباطل مع ما في الصدور من سالم النيات وشريف النزعات فيؤدي بهم الضلال الى خراب البلاد لا الى عمرانها

*

نقول اولًا ان الدين وحده يعلمنا واجباتنا للوطن تعليماً كاملًا فعّالًا ثابتاً

اما انهُ يعلمنا ما يقتضيه منّا الوطن فلا يكاد يحتاج الى برهان لان الدين يعلمنا ما يجب علينا لله مؤسس الهيئة الاجتماعيَّة والناس اعضاء هذه الهيئة فان عرفنا هذه الواجبات حق المعرفة عرفنا كل ما يقتضيه منّا الوطن لان الوطن ليس سوى هيئة اجتماعيّة مستقلة مالكة على ارض معينة تدير شؤونها كما تشاء. يقول لنا الدين: « لا يكن لك اله غير الله. اياه وحده تعبد وله تسجد. كن خاضعاً للسلطة الشرعيَّة لان السلطة من الله. ولا تنسَ ان الله اولى بان يُطاع من الناس ». ففي هذه الوصايا صورة الواجبات للسلطة المدنيّة. خضوع واكرام مهما كان الرئيس لان الخضوع والاكرام واجبان لممثل الله. خضوع بلا تذلل لان الخضوع لا يؤدى لانسان بل لله في شخص الانسان. خضوع ممزوج باستقلال الضمير. محدود بحقوق الله عزَّ وجل بحيث لا يعود جائزاً او واجباً اذا خرق الرئيس حرمة الشريعة الالهيَّة طبيعيَّة كانت او وضعيَّة. لان الرئيس اذا امر ما يخالف وصايا الله لا تحق لهُ الطاعة من مرؤوسيه لان امره لا يصدر حينئذٍ عن السلطة التي خولهُ الله اياها بل عن ارادته الذاتية. وارادة الانسان مهما كانت لا قوة لها لالزام احد اذ الله وحده مصدر القوة الالزامية التي في الواجب. فما اشرف هذا الخضوع الذي يأمر به الدين. فاذا تمّ جمع بنوع عجيب بين الرأس والاعضاء. بين الرئيس والمرؤوسين. وهو امر لا بدّ منهُ لحياة الهيئة الاجتماعيَّة كما انهُ ضروريّ لحياة الجسم البشري

يقول لنا الدين: « اكرم اباك وامك. لا تقتل. لا تزنِ. لا تسرق. لا تشهد بالزور. لا تشته امرأة قريبك ولا مقتنى غيرك. احبب قريبك كنفسك. وكل ما تريد ان يفعل الناس بك فافعله انت بهم ». ففي هذه الوصايا لائحة واجبات الانسان لقريبه اي لكل انسان سواه. فاذا روعيت تم نظام الهيئة الاجتماعية واتحاد اعضائها فيما بينهم لان في حفظ هذه الوصايا قوام العائلة. وصدق المعاملة. والوفاء بالعهود. وطهارة النفس. وصحة الجسد. ونشاط الهمَّة. ومحاشاة الحسد. واجتناب الطمع المضر. وحب الاحسان والغيرة على مصالح الغير وهلمَّ جرًّا. فهذه الفضائل هي لعمري كلها فضائل اجتماعية اذا توفرت في الجسم الادبي كان صحيحاً قويًّا كاملًا عاملًا بما تستوجبه منهُ طبيعته. قادراً

على بلوغ غايته وهي السعادة في هذه الدنيا على ما رتبهُ وقسمهُ لهُ الله . هـذا ما بينهُ موضحاً العالم الاقتصادي الشهير لي بلاي (Le Play)

كان ذاك الرجل العظيم في اول امره مبتعداً عن الديانة غير انهُ كان ميالاً الى عمل الخير ومنفعة مواطنيه . فاخذ يبحث في الوسائل الفعّالة لتنظيم الهيئة الاجتماعية واصلاحها فتوصل بطريقة علميَّة الى اكتشاف في غاية من البساطة وهو ان اساس الاجتماع البشري واصل رقيه في مدارج العمران حفظُ وصايا الله . فلا يقوم بناء خارجاً عن هذا الاساس ولا تحيا جمعيَّة بشريَّة ان لم تسر اليها الحياة من هذا الاصل . وكان هذا الاكتشاف سبب رجوعه الى ديانة عرف فائدتها العظمى وضرورتها القصوى . فاذا كانت وصايا الله قانون الوطنيَّة الصادقة افما صحّ ان الدين يعلمنا ما يجب علينا للوطن

ولا تكتفي الديانة بتعليم كل ما هو واجب تتميمه لعمران الوطن بل تسعى كل السعي لابعاد العقبات التي تحول دونه . ما هو عدو الوطنيَّة الالدّ ؟ لا شك انهُ حب الذات المفرط او الانانية لانهُ يحملنا على ايثار صالحنا الخصوصي على الصالح العمومي في كل ظرف ومكان ويجعل همنا الوحيد وشغلنا الشاغل توفير اسباب الراحة والرفاهية غير مبالين بخير القريب . فهذا الخطأ الفاحش والسم القاتل لكل عاطفة وطنية قد نبذه الدين ورذلهُ ما استطاع فان الكل يعرفون ان اساس الكمال الكفر بالذات اعني مقاومة حب الذات المفرط لانهُ عدو لكل فضيلة وبالتالي للوطنيَّة . فترى ان في الدين نوراً باهراً يضيء في ذلك السبيل ويهديها على محجة واضحة الى اسمى درجات الوطنيَّة

وهذا النور هو ثابت لا تستطيع ظلمات الشهوات اطفاءهُ لانهُ صادر لا عن ارادة الانسان ولا عن حكمته القاصرة لكنهُ منبعث من كلام الله الذي لا يزول وان زالت الارض والسماء . كتب موسى النبي هـذا القانون قانون الوطنيَّة الصادقة على لوحي الشريعة لمَّا كان يكلم الله في طور سيناء . وهـذان اللوحان لم تمحهما يد وان حاول كسرهما اعداء الدين منذ الوف اعوام . فهما باقيان وكلام الله باقٍ فيهما او بالحري هو الآن مطبوع في القلوب باحرف ناريَّة لن تنالها يد الكفر ابداً

وهـذا النور لطيف جاذب يحلى في العين والقلب كنور الكواكب في ليلة صافية فانها تضيء فوق رؤوسنا وتستميل اليها قلوبنا كأن بينها وبيننا علاقة سريَّة . وعلى هذا المثال تجد التعليم الديني . ليس تعليماً فلسفياً مجرداً يرضي العقل ولا يبلغ القلب انما هو

تعليم حياني فيهِ قوة جاذبة خفية . يكفي تشخيصه للنفس الطاهرة المجردة عن الغايات لائمة حتى تميل اليهِ بكل قواهـا . ولا عجب لان من خلق الانسان هو الذي خلق بالوصايا ليكون لهُ فيها صلاحه فجعل بينه وبينها علاقة روحية وميـلًا طبيعيًا ليدركها ويعشي بموجبها وهو مع ذلك مطلق الاختيار كما انهُ جعل في كل حيوان غرائز طبيعيَّة تحملهُ الى كل ما فيهِ خيره

ورب معترض يقول : « لا ننكر ان الوصايا قانون الوطنيَّة الصادقة والمدنيَّة الصحيحة ولكنَّنا يمكننا ان نعلّم مضمونها دون التجاء الى الديانة » . تلك لعمري امنيَّـة طالما عُلّل بها الملحدون انفسهم وانفس من يصغون اليهم وقد شقوا الروح للوغهـا فرجعوا بصفقة خاسر ولا بدع فان من طلب المحال رجع بما رجع بهِ حنين . لان الوصايا الادبيَّة لا تنفصل عن واضعها وهو الله عزَّ وجلَّ والَّا لما كان لهـا قوة الزاميَّة ولخرجت عن ان تكون واجبة وقد بيَّن المشرق ذلك مطوَّلًا (السنة ٧ : ٨٣٤) فطالعهُ

وعليهِ فعبثًا تقول للولد اكرم اباك وامك ان لم تردف وتقل : هـذا امر الله . والَّا اجابك الولد ان كان فيهِ روح الانتقـاد السائد الآن : ولِمَ اكرم ابي وامي . فان كانا علَّة وجودي فمتى طلبت اليهما ان يوجداني . وان احسنا اليَّ فإن انا رأيت اكرامهما غير موافق لصالحي او لذتي الآن فمن يجبرني . وقس عليهِ باقي الوصـايا . وقد جاء الاختبار مؤيدًا لصحة مقالنا . هذا التعليم في فرنسا . فقد ارادت الشيعة القابضة على زمام الاحكام نزع الصبغة الدينيَّة عنهُ وهي تدَّعي مع ذلك المحافظة على الآداب لعلمها بان الهيئـة الاجتماعية اذا فسدت الآداب تتلاشى وتصبح في حالة الهمجيَّة . فما كانت نتيجة نزع التعليم الديني من المدارس العموميَّـة سوى ازدياد الجرائم بين الاحداث بنوع هائل . واليك بعض الاعداد مأخوذة عن لوائح وزارة العدلية فانها افصح من الخطب المسهبة

في سنة ١٨٤٠ كان عدد المجرمين الذين عمرهم بين السادسة عشرة والحادية والعشرين ٨٠٠٠ فاصبح في سنة ١٨٩٢ اي عشر سنين بعد انشاء المدارس اللادينيـة يتراوح بين ٣٠,٠٠٠ و ٣٢,٠٠٠ واكثر وذلك بدون حدوث زيادة تذكر في عدد الفتيان

في سنة ١٨٨٢ سنة انشاء المدارس الكفرية كان عدد المجرمين الاحداث ممن لم يبلغوا بعد الحادية والعشرين ١٦,٠٠٠ فاصبح عشر سنين بعدها ٤١,٠٠٠

في سنة ١٨٧٥ كان عدد المتحرمين من الفتيان الذين بين السادسة عشرة والحادية والعشرين ١٦٨ فاصبح ٥٢٩ في سنة ١٨٩٦ و ٧٨١ في سنة ١٩٠٠ . وبين الاولاد الذين دون السادسة

عشرة كان معدل الانتحارات ٢٥ في سنة ١٨٧٥ فاضحى ٧٨ في سنة ١٨٩٦ و١٢٠ في سنة ١٩٠٠

فهذه الارقام ناطقة لا تحتاج الى تذييل. تشهد ان الجرائم بين الاحداث ازدادت اربعة او خمسة اضعاف عما كانت من يوم انشاء المدارس الكفرية ولولا خوف الاطالة لجئنا بكلام القضاة والمحامين والوزراء ومديري السجون والكل يقرون بهذه الزيادة ويعترفون ان سببها سوء التربية والتهذيب في المدارس

وبما اننا نتكلم عن الوطنية خصوصاً يحسن بنا ان نبين بالاختبار ما آلت اليه هذه الفضيلة عند اصحاب التعليم الكفري. لما حاول جول فري وبول برت واصحابهما طرد الله من المدارس سنة ١٨٨٢ قالوا ان الوطنية تنوب منابه وانها العقيدة الوحيدة التي تجمع قلوب كل الفرنسيس وتوحد الامة. فاجابتهم الحوادث وكان جوابها « اللاوطنية » فان الكل يعرفون النهضة الاثيمة التي تسعى الى ملاشاة الوطنية في فرنسا. وان اصحابها وحاملي لوائها ارباب العلم وكبار المعلمين ممن كلفتهم الدولة بتهذيب الاولاد. فقد نزعوا عنهم ربقة التعليم الديني فآلت بهم سفسطتهم الى انكار الوطن والوطنية حتى قال احد زعمائهم هرفه (Hervé) انه يود لو يرمي راية فرنسا على مزبلة وليس هذا شأن بعض الافراد فانهم الوف هذه افكارهم قالوا (في مجلة التعليم الابتدائي ١٩٠٤) يخاطبون وزير المعارف انهم ٣٠,٠٠٠ ولنهم غداً يصبحون ٨٠,٠٠٠ ولا نستغرب امر هذه النهضة لان التاريخ ينبئنا ان ترك الله يهوي بصاحبه الى ادنى دركات الضلال ومن اراد زيادة ايضاح فعليه بتاريخ الفلسفة يجد من الحماقات انواعاً والواناً

اذاً لا يمكن الاستغناء عن الديانة لتعليم الاحداث واجباتهم للوطن تعليماً كافياً فالديانة وحدها كما قلنا تحمي الوطنية وتقيها من لفحات الاضاليل وتحميها من حملات اللاوطنيين. وهناك فئة اخرى لا تريد الاستغناء عن الدين في التعليم والتهذيب ولكنها تريد فصلهما بحيث يكون الدين على قولهم معتزلاً في معابده ولازماً الحيادة لا يتداخل في التعليم بل يترك للمعلم مطلق الحرية ليثقف عقل الولد كيفما شاء. هذا مذهب حاول اعداء الدين نشره في اول امرهم لما كانوا بعدُ ضعناء يخافون المجاهرة بفاسد مقاصدهم وشرّ غاياتهم. ولكن الكنيسة كانت ساهرة فعرفت المكيدة ونبهت اليها خواطر ابنائها ورذلت المدارس المسماة « حيادية » (neutres) لادّعائها الحيادة في امر الدين.

والسبب في ذلك ظاهر لان عزل الدين عن التهذيب مستحيل . فكيف يمكن الاستاذ ان يشرح شعراً او خطابًا او حادثًا تاريخيًا او ان يصلح فرضًا من فروض تلامذته دون ان يميز الخطأ من الصواب والباطل من الحق . فاذا فعل فلا مندوحة عن مبادئ او اصول ادبيَّة يستند اليها لبيان الحقيقة ودحض الباطل . امَّا هذه المبادئ فلا تخلو ان تكون امَّا مطابقة للدين او منافية لهُ ولا ثالث في الادبيات او في الاوليات الفلسفية فلا يخرج التعليم اذًا من ان يكون موافقًا للدين او معاديًا لهُ . واذا اراد المهذب ان يروض اخلاق تلامذته فبأي الوسائل يتذرع ؟ كيف يبين للولد خطأه وكيف يحثه على اصلاحه ؟ فقد قلنا ان الادبيات لا تنفصل عن الدين والَّا فقدت قوتها وباتت مضعضعة لا اساس لها ولا اصل . فان كانت مبادئ ادبياته مطابقة للدين ومستندة اليه كان التهذيب دينيًا والَّا كان معاديًا . فترى ان التعليم والتهذيب لا يكون الَّا دينيًا او معاديًا للدين . وامَّا لزوم الحيادة فيه فذاك اكذب من الآل واخدع من السراب

ولقد أتت الحوادث مطابقة للمبادئ هنا ايضًا ففي فرنسا مثلًا كل المدارس التي زعمت في اول امرها انها حيادية اضحت الآن كفريَّة

لمَّا حذفت من لوائح التعليم واجبات الانسان لله سنة ١٨٩٤ نشر احد زعماء التعليم وهو اليوم مدير مدرسة المعلمين في مقاطعة السين في مجلة التعليم الابتدائي (٢٥ تشرين الاول ١٨٩٤) مقالة جاء فيها : « من لا يؤمن بالله لا يستطيع ان يعلم ما هو الله . والحال اين المعلمون والمعلمات الذين يؤمنون اليوم ايمانًا صادقًا ثابتًا ؟ يمكن القول دون مبالغة ان المدارس العموميَّة منذ ١٨٨٢ هي مدارس بلا دين ولا يُستثنى من هذا الحكم الَّا عدد قليل منها » فاذا كانت هذه الحالة في سنة ١٨٩٤ فما عساها تكون اليوم

وقد اقر اصحاب التدريس ان المدارس الحيادية غير ممكنة . قال المسيو برمبار وهو من كبار موظفي المعارف : « لا يمكن ترجمة او شرح صفحة من ديوستين او تاسيت او بسكال دون الانحياز الى حزب من الاحزاب . فلا يمكن لزوم الحيادة بين الحق والباطل ولا بد لساقة الشعب ان يبوحوا بمعتقدهم ويوضحوا الطريق التي يمشون عليها »

فالكل اذًا مجمعون ان المدرسة لا يمكن ان تلزم الحيادة في امور الدين وعليه ان لم

تكن مرآخية للدين فهي بلا شك معادية لهُ . ولمّا كان الدين واجباً للوطنيّـة الصادقة فالمدارس الدينية واجبة لبثّ مبادئها وتعليم اصولها

*

لا يتم برهاننا الّا اذا بيّنا ان الديانة وحدها تمكن المزائم من تتميم الواجبات للقريب وللوطن

ان معرفة الواجب ولو كانت كاملة لا تكفي لتحمل الانسان على العمـل بهِ . تلك حقيقة راهنة نختبر صحتها كل يوم فكم من عقل صائب يدرك الامور وهو مع ذلك واهي القوى يذوي ولا ينجز يعزم على العمـل ولا يأتي عليه . وذلك لان قوى الانسان مختلفة فالعقل غير الارادة والارادة غير القوة الفاعلة . ولا بد من هذه كلهـا للعمل . وعليه اذا استنار العقل فقط بقي الانسان في مكانه لا يتحرك للعمـل ولذلك لا افهم كيف يزعم بعض الكتبة ان العلم كافٍ لممارسة كل خير وصلاح

فاذا كان الامر كذلك أفتجد النفس في الدين قوة لتتميم ما يدلهـا عليه العقل ؟ لا ريب في ذلك

اولًا ان الدين يجذب قلب الولد لتتميم واجباته بزرعه فيه حب الله ومخافته ورجاء نواله . ولا مشاحة ان الحب والخوف والرجاء من اشـد العوامل الطبيعية التي تتنازع القلب البشري وتديره في كل حركاته وسكناته . فكم بالحري ان كانت فائقة الطبيعة اي ان كان موضوعها الله ابانا وديّانا وجزاءنا فهي بلا شـك تقوى على دفع هجمات الاميال السيئة وكبح جماح الشهوات الرديئة وحمل النفس على الفضيلة . ولا اعتبار لقول من يدّعي ان خوف الله والرجاء بهِ مما يحط بشأن الانسان لان الانسان ليس ملاكاً انما هو حيوان ناطق وبما انهُ حيوان يشارك الحيوان في طبيعته فيحتاج الى خوف ورجاء ليسير على محجـة الفضيلة سيرًا دائمًا بلا توانٍ ولا التواء فان كلمة الكتاب المقدس لم تزل ولن تزال عين الصواب : رأس الحكمة مخافة الله . فاذا زدت على المخافة والرجاء حبّ الله اصبت من الولد كل ما تريد من الصلاح لان الحب لاسيما حبّ الله قادر على كل شيء

ثم اذا بلغ الولد وهاجت فيهِ الاميال السيئة احتاج الى اسعاف اعظم وقوة اقدر لان الميل الى الدنايا يضعف الهمة ويرهن القوى . فتقدم لهُ الديانة وسائل فعّالة كالصلاة

وباقي الاعمال التقويّة . فاذا تسلح بها الحدث انتصر على اعدائه وقام بواجباته مهما اشتدت عليه التجارب . هذا ما نشاهده يومياً في مدارسنا فاننا نرى في الولد والشاب التقيين استعداداً لبذل كل نفيس عند الحاجة للقيام بما يطلبهُ الله . والعكس بالعكس فان من اهمل هذه الوسائل وهنت قواه وعجز عن اتمام اسهل واجباته . وان طلبت شاهداً آخر فعليك بالتأمل في المشروعات الخيريّة العظيمة الموجودة في الدنيا . من يقوم باعبائها ؟ اصحاب الدين من رجال ونساء وشبان وفتيات . قوم تركوا ملاذّ الدنيا وراحتها ليخدموا الفقير والعليل والجاهل والعاجز وكل مضروب بالعاهات . أتعرف آفة لم يبذلوا وسعهم في ازالتها او تخفيف وطأتها ؟ هذا الاب داميان حبس نفسه مع البرص اعواماً حتى اصيب بدائهم ومات بعد ما اكل الدود اعضاءه واماتها امام عينيه . هؤلاء المرسلون يذهبون الى الاصقاع الافريقية ليمدنوا المتوحشين في اقاليم معدل العمر فيها للاوربي ثلاث او اربع سنوات . وامثال هؤلاء كثيرون نراهم حتى في مدينتنا . أتعرف خدمة للهيئة الاجتماعيّة والوطن اعظم منهم وانفع ؟ فمن قواهم ؟ من مكنهم من هذه الاعمال السامية التي لم تعرفها الوثنية ؟ اسألهم يجيبوك بصوت واحد ان الديانة وحدها الهمتهم وهي وحدها قوتهم ولولاها لما استطاعوا امراً . فاذا مكّنت الديانة الانسان من الاعمال السامية الكاملة أفما تقوى على الاعمال البسيطة المفروضة على العموم ؟

وان اردت زيادة فقابل بين ذوي الدين وذوي الكفر . اين فضائل هؤلاء الشخصيّة ؟ اين اعمالهم المبرورة ؟ اين تضحية الذات ؟ اجل يكتبون المقالات الرنانة في حب الانسانية وضرورة التعاضد وربّما دفعوا شيئاً من المال ان كانوا من اهل الثروة . واما ملاذهم واما راحتهم واما حياتهم فهيهات ان يضحوها في منفعة القريب وخدمته

ثبت اذاً ان الديانة وحدها امّ الوطنيّة الصادقة فمن اراد بث هذه العاطفة الشريفة وحفظها وانماءها فعليه بتربية الاحداث تربية دينية . ومن اهملها وادّعى انهُ دين فقد ضل الطريق السواء . ويودنا لولا الاطالة ان نورد هنا اقوال العلماء وائمة الكتاب ولكن فيما ذكرناه كفاية لمن تبصر . وعليه لا يسعنا الّا التحسر حينما نرى صاحب كراسة حديثة طبعت في الاسكندرية يقترح على مواطنيه لائحة الاصلاحات التي يراها ضرورية ويسهب في الكلام عن التعليم والتهذيب ويغفل امر الدين كأنهُ امر عرضي بل ينسى اسم الله سبحانهُ فانهُ لم يذكره سوى مرة واحدة وذلك عرضاً ليحث

كل ابناء الوطن على نبذ المسائل الدينيَّة ظهريًّا ليهتموا بتعزيز الوطن وهو لعمري وهم وخبط العاقبة اذ حياة الوطن بحياة الدين

*

ولعلَّ القارئ يتعجب من مقالنا وينسبه الى المبالغة ويقول: كيف يصح ان لا يكون وطنية صادقة خارجة عن الدين ونحن نرى كثيرين صادقي الوطنيَّة لا دين لهم.

لو اجبنا اننا لم نتكلم حتى الآن الَّا بوجه العموم عمَّا من شأنه احياء الوطنيَّة الصادقة وانمائها ولم ننفِ وجود الوطنيَّة في افراد لا دين لهم لكان جوابنا كافيًا لردّ كل ما يضعف قوَّة برهاننا اذ الاعتراض لا يمس جوهر الحقيقة التي اردنا اثباتها. غير اننا لا نرضى بهذا الجواب السلبي بل نحب النظر في نفس الاعتراض لنرى ان كان فيه للصواب نصيب

فنقول اولًا ان كثيرين يوهمون باقوالهم وبعض اعمالهم انهم مطبوعون على الوطنيَّة الصادقة وهم ليسوا عليها بشيء لان الاقوال والاعمال لا تنسب الى الوطنيَّة الصادقة الَّا اذا كانت صادرة عن فضيلة باطنة تحمل الانسان على العمل حبًّا بالوطن لا غير. فانهُ من الممكن اتيان بعض الاعمال المفيدة ظاهرًا للوطن وهي صادرة عن الطمع في المنصب الاول او حب المجد الباطل او الرغبة في الشهرة او التشفي من الذين اساؤوا الى غير ذلك من العواطف الدنيئة. هذا كاتب يسطر في الجرائد اقوالًا طافحة بعواطف الوطنيَّة يبرق ويرعد ويستنزل صواعق السماء على اللئام الذين يخونون الوطن فتقول: هذا وطني صادق اللهجة. ولكنك اذا فحصت عنهُ وجدت انهُ اجنبي ليس فيهِ من الوطنية ذرة وانما في صدره حزازات يخفيها تحت لواء الوطنيَّة والوطنيَّة منها براء. وامثال هذا كثيرون كشف التاريخ النقاب عن سرائرهم فنفى عنهم الوطنية التي كانوا تردَّوا بها ليغرّوا معاصريهم. وعليهِ لا يمكننا ان نحكم بصدق وطنيَّة الرجل الكافر الَّا اذا اطلعنا على اسراره. فترى من هذه الملاحظة البسيطة ان الذين يستشهد بهم المعترض ليسوا كثيرين كما يتوهم بل افرادًا قلائل

نقول ثانيًا ان هؤلاء الافراد القلائل الذين يمكن اثبات وطنيتهم الصادقة مع كونهم خلعوا عنهم ربقة الدين يوهمون ان وطنيتهم مستقلة عن الدين وليست كذلك فانَّ من تأمل امرهم رأى ان مظاهر الوطنيَّة منهم وان صادقة انما هي بقايا الدين لم

ينسخها بعد تقادم العهد به. فان الفضائل التي مارسوها قبل كفرهم ام على الاقل التي مارسها اباؤهم واجدادهم الدينون ابقت في النفوس عوائد ارثيَّة حسنة واخلاقاً حميدة تثبت وان زال مصدرها كأنوار تلك الكواكب الشاسعة البعد التي يبقى نورها وقد زالت عن عالمنا لبعد فلكها الرائع. فيظن الانسان ان تلك فضائل اكتسابية وانما هي غرائز ارثية لا فضل لصاحبها فيها تمحى آثارها بعد جيل او جيلين

نقول ثالثاً انهُ وان وجدت الوطنيَّة في بعض الافراد ممن رزقتهم الطبيعة سجايا فريدة دون ان يكون فيها للدين نصيب ألا ان الدين واجب لاثراء الوطنيَّة وكمالها. لان الوطنيَّة الصادقة التي نتكلم عنها ليست فقط عاطفة حب طبيعي الارض التي وُجدنا فيها واستنشقنا هواءها وامتعنا اول لحاظنا بمحاسنها. وليست فقط ميلاً حسياً الى اهلنا واقاربنا وذوي جنسنا يدفعنا الى الحماية عنهم والذب عن حقوقهم فان هذه هي العصبية بالذات. بل هي فضيلة تحملنا على كل ما من شأنه منفعة الوطن واعلاء كلمته. بل قل هي مجموع الفضائل التي موضوعها المعيشة الاجتماعيَّة. الوطنية الصادقة الكاملة تحمل رب البيت على تربية اولاده كما يجب وتدبير عائلته بحكمة مبتعداً عن الشح الذميم والترف المخنث لان بالعائلة قوام الجمعية البشريَّة فليس وطنياً صادقاً ذاك الذي يرمي اولاده في ميتم ليطلق لشهواته العنان كما فعل جان جاك روسو ابو السوسياليسم. الوطنيَّة الصادقة تحمل المرء على مراعاة احكام الزواج المقدسة لان فيها قوة النسل وبالنسل قوة الوطن وثباته. الوطنيَّة الصادقة تحمل المرء على تضحية صالحه الخاص في طلب المناصب اذا اقتضى خير الوطن تسليمها الى من هو اجدر. وقس عليه. فممارسة جميع هذه الفضائل في كل آن وحين لامر صعب يعجز عنهُ من لا يؤمن بالله ايماناً قوياً ولو زيَّنتهُ الطبيعة بالمحامد والسجايا الطيبة. فثبت اذاً ان الديانة ضرورية لاحياء الوطنية الصادقة ليس فقط لعموم الشعب بل للمتفردين بحسن سجاياهم. وذلك كما قلنا لان هذه الفضيلة سامية لا ينالها من لم يتقِ الله

وعليه اذا كان الدين زاهراً كانت الوطنية متأصلة في القلوب صادقة واذا كان الدين في انحطاط كانت الوطنية في انحطاط ايضاً يشهد بذلك التاريخ القديم والحديث اما القديم فظاهر لان الوطن والدين قبل المسيح كانا شيئاً واحداً. فمن دافع عن وطنه دافع عن دينه. اما بعد المسيح فان الدين والوطن وان امتازا الا انهما بقيا سائرين يداً في

يد حتى الجيل الثامن عشر جيل الكفر وجيل الانحطاط ايضاً باجماع الكل . فأخذت الوطنيَّة تضعف . ولا اريد برهاناً على ذلك سوى عواطف زعماء الفلسفة المادية للدين كفولتير وروسو وديدرو وهلمَّ جرًّا فان هذه العصابة وان افرنسية كانت تكاتب ملك بروسيا وتهنئهُ على انتصاراته على فرنسا . امَّا زعماء الثورة سفكة الدماء فانا نجل الوطنية عن ان ننسبها اليهم وقد كان اكثرهم اجانب . انما استعانوا بوطنيَّة الشعب وقد كان دينًا بعدُ لتحصيل مآربهم . امَّا في الجيل التاسع عشر والعشرين فقد بلغ الكفر حدًّا لم يبلغهُ قبلًا فزهت بين ذويه وازدهرت تلك الشيعة الاثيمة شيعة اللاوطنيَّة وهي من نتائج التعليم الكفري

افيرتاب بعد ذلك القارئ في صحة القضية التي احببنا اثباتها ؟

*

ولكن المعترض يلح علينا : اراك من اهل التعصب ولا خير في التعصب سوى خراب الوطن فالعصر عصر تساهل وعلينا ان نجاري العصر والَّا كنَّا من المتأخرين . مهلًا يا هذا فان كلمة تكفي لدحض زعمك

ان الابهام في المسائل المهمة من اعظم الوسائل التي يتذرع بها اعداء الدين ليصطادوا البسطاء والسذَّج اي السواد الاعظم من كل امة . فانهم يستعينون بالفاظ ذات معانٍ لا يفسرونها ابدًا فبينا القرَّاء او السامعون يحملونها على معنى يحملها قائلوها على معنًى آخر فتنتشر وتنتشر معها مبادئ فاسدة تصبح في ايدي المحركين آلة قوية لاحداث الشغب وزرع الفساد . من هذه الالفاظ لفظة التعصب وعكسها التساهل . فانك تجد المقالات المطولة في ضرر التعصب وضرورة التساهل فالتعصب اصل كل شر والتساهل منبع كل صلاح وخير . واذا طلبت تعريفًا واضحًا لهاتين اللفظتين لم تجده . فعلينا اذًا ان نكشف عنهُ النقاب قبل الجواب على الاعتراض

للتساهل معنيان على الأقل . الاول هو التساهل مع الاشخاص وهو احتمال من كان على رأي مخالف لرأينا سيما في امور الدين ومعاملته بالرفق والمحبة مع ما بيننا من التباين في العقيدة . فان كان هذا المراد من التساهل فليس هو امرًا مستحدثًا لانهُ مما

يعلمنا الدين فان هذا التساهل واجب على كل مسيحي سيما في بلاد كثرت مذاهبها ولولاه لتعذر الائتلاف وزال الاتحاد الذي لا تقوم المملكة بدونه

وهناك معنى ثانٍ في اصطلاح جملة من الكتبة اللادينيين. يريدون بالتساهل التساهل في المبدإ والعقيدة بحيث يعتبرون الاديان كلها سواء فعلى زعمهم يجب على كل فرد من افراد الهيئة الاجتماعية ان يُنزل ديانة صاحبه المنزلة التي يُحلّ فيها ديانته. وان بقي هو على دينه ولم يعتنق دين صاحبه فانما ذلك لانهُ وُلد فيه ليس الّا. وكما ان المرء لا يغير جنسيته كذلك لا يغير دينه. وكما ان الفرق بين الجنسيات لا طائل تحته كذلك الفرق بين الاديان. فهذا التساهل الذي يرغب البعض في رفع لوائه بيننا لا يمكننا التسليم بهِ مطلقاً لانهُ جحودٌ بالعمل لكل دين وابطال بالفعل لكل عقيدة. ولا عجب لانهُ لو كانت كل الاديان متساوية فلا يكون تساويها الّا في الفساد. وذلك لان في الاديان عقائد متناقضة فلو كانت كلها سواء للزم ان تكون كلها صحيحة او كلها فاسدة فلا يمكن ان تكون كلها صحيحة لان الحق لا تناقض فيهِ فبقي اذًا ان تكون كلها فاسدة ولذلك رذلت الكنيسة هذا التساهل مرارًا بل رذلهُ كل موحد وكل فيلسوف اهلٍ لهذا الاسم

فبعد هذه المقدمات نرجع الى اعتراض صاحبنا فنجيبه: نعم ان التربية الدينية تنافي التساهل في المبدإ والعقيدة. هذا لا ينكره مؤمن. غير انهُ ينكر ان هذا التساهل ضروري لوحدة الوطن وارتقائهِ في سلّم العمران. فان التساهل مع الاشخاص كافٍ لبلوغ هذه الغاية. وذلك لان الغاية التي تتوخاها الديانة هي غير الغاية التي لاجلها اولًا جُعلت الهيئة المدنية. فالاولى تهيّ للانفس وسائل الخلاص الابدي. والثانية اسباب الخير الزمني. تلك تساعده على بلوغ السعادة الابدية. وهذه على بلوغ السعادة الزمنية. وعليهِ امكن توحد الديانة وتعدد الممالك وكذلك يمكن توحد المملكة مع تعدد الاديان ولا نريد القول ان توحد الدين في المملكة ليس من الاسباب القوية لتوثيق عرى الاتحاد حتى في الامور الزمنية ولكنا نقول ان هذه الوحدة ليست من الضرورة في درجة لا يستطاع الاستغناء عنها. ولنا فيما نشاهده حولنا برهان آخر على صحة قولنا فاننا نرى عدة ممالك تعد في مقدمة الشعوب في المدنية قد كثرت فيها المذاهب ولم يدّعِ فيها احدٌ ان من ضروريات وجودها التساهل في الدين. هذه مثلًا

المانيا وانكلترا والولايات المتحدة فانكل يطمون ان الكثلكة فيهـا زاهرة زاهية ومع ذلك لم يخلُ تمسك الكاثوليـك بايمانهم وتعصبهم لدينهم دون وطنيتهم ولم يمنعهم من ان يكونوا من اعظم اعوان النجاح في بلادهم . بل رأينا الملوك والرؤساء يشهدون لهم قولًا وفعلًا بصدق وطنيتهم . فاذا تجاسر احد وطعن فيها اقتصت منهُ المحاكم كما جرى للاب ڤون الواعظ الشهير منذ بضع سنين . فقد كانت احدى الجرائد البروتستانية طعنت فيه وسمتهُ خائنًا لزعمها انهُ كاهن كاثوليكي . فرفع الاب دعواه الى المحاكم فحكمت على اصحاب الجريدة بالقصاص الصارم

فلا داعي البتة الى مسح الصبغة الدينية عن التهذيب والتعليم بل من الواجب تقوية العواطف الدينية في القلوب لاسيما الآن وقد اطلقت لنا الحرية المدنية والسياسية لان الاحكام السابقة وان كانت تقيد حريتنا وتثبط همتنا وتمنعنا من الاقدام على امور فيها صلاحنا وصلاح البلاد الّا انها كانت ايضًا كسور يحمي النفس من تعديات اهوائها واميالها الفاسدة وكمثال يكبح جموح النفس الامّارة بالسوء . امّا الآن وقد هُدم هذا السور الخارجي فلا بُدّ من حاجز باطني يوقف الحرية عند حدودها لئلّا تتعداها وتأتي بما يخل بالنظام العام وخير الوطن . وان هذا السور الداخلي الذي يمنع شرود النفس هو الدين فانهُ ينبه المرء على الخطأ ويزجره ويرشده الى الحق ويستحثه على اتباعه كما قلنا . فاذا كان الدين ضروريًا للانسان في كل احواله فهو اشد ضرورة في حكم الحرية

وعليهِ يحق لنا ان نكرر في الختام ما قلناه في الافتتاح واثبتناه بالبرهان ان ليس حياة للوطن الّا بالدين وبالتربية الدينيـة . وقد صدق بلوترخس الوثني اذ قال : « انهُ لأسهل على الانسان بناء مدينة في الهواء من بناء مدينة بلا دين » وليس قولهُ سوى صدى الحكمة الازلية اذ قالت (المزمور ١٢٦ : ١ و ٢) : « ان لم يبنِ الربّ البيتَ فباطلًا يتعب البنّاؤون . وان لم يحرس الربُّ المدينة فباطلًا يسهر الحارس »